الخطابة في العصر الأموي

اما الخطابة في العصر الأموي فقد تهيأ لها من أسباب النهضة والنمو والسعة والازدهار من البيئة السياسية والاجتماعية ما زاد في أفقها ونوع في أغراضها، وأنضج أسلوبها .

فقد أتيح لها حرية القول، وهي الدعامة القوية، والرفد العظيم الذي يمدها بالري والحياة .

ومتى أستطاع الخطيب أن يعبر عما يجول بنفسه، ويحوك في صدره، ويدلي بما له من رأي في السياسة، ويدعو لما يدين به من مذهب، لا تهدده سطوة، ولا تتوعده قوة، يدعم بالدليل ما يعتقده، ويفند بالحجة ما لم يؤمن به، فهو صاحب الخطب الموصولة والبيان الجهير.

وإذا كان الإسلام قد كفل للناس الحرية فيما يقولون، ولم يحجر عليهم فيما يدينون به بعد أن تبين الرشد من الغي فإن (معاوية بن أبي سفيان) حين قال: (إن لم تكن إلا حكمة يشتفي بها مشتف جعلتها تحت قدمي ودبر أذني إنا لا نحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا)، قد مد في حبل هذه الحرية، وأراح صدور الناس بما وفره لهم من الأمن على أنفسهم حين تنطلق ألسنتهم بكل ما يذهبون إليه من رأي أو مذهب .

وقد كان (معاوية) من الحجي والحكمة وسداد الرأي بمكان حين سن هذه الحرية للناس راضياً بها، أو مضطراً إليها ؛ لما يعرف في نفوس العرب من قوة الشكيمة .

وقد كانت الحرية التي دعا (معاوية) إليها دافعاً قوياً لقيام الأحزاب السياسية وأول الطريق إليها

وكم كان للأحزاب السياسية من يد على الخطابة بالصيال والجدال، والمنافسة، بل إنها كانت نعمة على (معاوية) نفسه، ففي تفرق الكلمة، واختلاف الجماعة، سبيل لقوته واستقرار لحكمه.

ولا يغيب عنا أن مناهضة بني أمية للأحزاب، وأخذهم بالقسر لم يكن إلا بعد أن قويت شوكة الأحزاب، وباتت تهدد الدولة، أما قبل استفحال امر الفراق فإن (معاوية) وخلفاءه لم يضيقوا على الألسنة، ولم ينهنهوا من حدة الرأي.

ولقد أثر أن أعرابياً شهد أمام (معاوية) بشيء كرهه فقال له (معاوية) كذبت يا أعرابي، فقال الأعرابي: الكاذب والله متزمل في ثيابه. فقال (معاوية) وتبسم: هذا جزاء من عجل [1].

والمعارضات في ذلك كثيرة مع الحجاج والمغيرة بن شعبة وعبد الملك ابن مروان وغيرهم. وبعد ذلك كله امتداد لما حدث في العصر الإسلامي.

قوة الملكة:

اتصف العربي في عصر بني أمية بقوة الملكة، أو قل إن شئت نمت قوة الملكة وازدهرت، وسلامة السليقة، واكتمال الموهبة كل ذلك أمدهم بالقدرة على مواقف الخطابة وارتياد ميادينها وليس ذلك بغريب - فهم عرب فصحاء مفطورون على القول، ولهم بالجرأة على القول تميز واشتهار.

١- أنظر دراسات في الأدب - د/ كامل الفقي صـ ٣٣ وجمهيرة خطب العرب ج٢صـ ١٨٣.

وقد قيل إن العرب أهل فصاحة لسانية أكثر منهم أهل بلاغة كتابية ولعل هذا هو السبب في أنهم وضعوا للفصاحة كلمة مشتقة من اللسان فقالوا : رجل لسن إذا كان ذا بيان وفصاحة ، ولم يشتقوا مثل ذلك من الكتابة (١) .

لقد نضجت العقول في عصر بني أمية ، وهذبت الملكات ، وطوعت أزمة القول ، واستمد الخطباء ما استمدوا من الأمصار المفتوحة ، وصار ذلك مجالات جديدة للخطيب ، يجد فيها المعاني الوافدة ، والأغراض المستحدثة وإن كانت الملكات في أواخر هذا العصر قد ضعفت وتطامنت وهان شأنها إلا أنه ضعف لا يخرج أصحابه إلى حد العجز والانهيار.

الأحزاب والفرق :

يعد قيام الأحزاب السياسية ، وتعدد الفرق المذهبية من أهم بواعث الخطابة ، وتنشيط سوقها في هذا العصر.

وقد أثر في ذلك ما أثر من التراشق بالتهم ، ولقد كان فيهم أمويون وزبيريون، وكان فيهم الشيعة والخوارج ، وبين كل صيال وجدال ومن أثر ذلك خطب تتأجج ، وبيان يتدافع ، ووراء كل فريق عشاق يتبارون في القول ليهيجوا النفوس ، ويحموا الأنصار ، ولن تجد أفعل من ذلك النضال في إثارة البيان وصقله وتهذيبه .

وحين ضعفت الأحزاب ، وأغمدت سيوفها ، سلت مكانها الألسنة ، فكان للدولة معارضون أذكياء ينكرون سياستها ويذيعون قالة السوء عنها ، واضطر الخلفاء والأمراء أن يدافعوا عن أنفسهم وعن سياستهم باللين حيناً وبالقوة حيناً،

١- ضحى الإسلام ج١ صـ ١٧٤.

وكل ذلك جعل حظ الخطابة في هذا العصر عظيماً لم تبلغ مثله أمة من قبل إلا ما كان من أمر اليونان والرومان ، ولقد كان للإيمان الذي يخالط شغاف القلوب ، والعقيدة التي ترسخ في أعماق النفوس ، من دَفْعٍ قوى جريء لأولى الإيمان والعقيدة أن يجهروا برأيهم ، ويناضلوا لنصرة مذهبهم ، ويستميتوا في نشر فكرتهم، لا يبالون في هذا بأذى ، ولا يرهبون من جراء ذلك صاحب سطوة فلما نعي (الحسين) رضي الله عنه في الكوفة نادى واليها (ابن زياد) إلى الصلاة الجامعة ، ثم صعد المنبر وخطب فقال: (الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين بزيد بن معاوية وحزبه ، وقتل الكذاب بن الكذاب الحسين بن علي وشيعته ، وما أكمل ابن زياد جملته حتى وثب إليه شيخ ضرير هو (عبد الله بن عفيف الأزدي) وصاح قائلاً : يا ابن مرجانه ، أتقتل أبناء النبين وتقوم على المنبر مقام الصديقين؟ إنما الكذاب أنت وأبوك ، والذي ولاك وأبوه ، ولم يطلع عليه النهار إلا وهو مصلوب [1]

وللخوارج في ذلك شأن عجيب ، فقد كان لهم من قوة العقيدة ما حملهم أن ينتهزوا كل فرصة للدعوة إلى مبادئهم جهرا ، بل كانوا يرسلون إلى الخلفاء والأمراء يدعونهم لمشايعة مذهبهم .

وقد بلغ من شأن الخطابة في هذا العصر أن أصبحت فناً يدرس ، وعلماً يلقن يقاس به قيمة الرجال وقد روى أن (بشر بن المعتمر) مر على (إبراهيم بن جبلة) وهو يعلم الفتيان الخطابة ، فوقف عليه وكأنه لم يعجبه كلام (إبراهيم) فدفع إلى الفتيان صحيفة من تحبيره وتنميقه فإذا فيها من جملة ما فيها : ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين

١- انظر دراسات في الأدب صـ ٣٦.

وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ، ولكل حالة مقاماً ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات.. الخ).

سمات الخطابة الأموية :

لم تقم دولة الأمويين على الدين ، فقد علم قادتها أن مظهر الدين لا يقبل منهم ، ومن ثم عولوا على السياسة وشفت الخطابة عن هذه النزعة ، وكان من أثر هذه الصبغة في خطبهم أنهم لم يعمدوا إلى الاقتباس من آيات القرآن الكريم ، كما كان يفعل السلف الصالح ، بل غلا بعضهم فتجافي عن استهلال الخطبة بالحمد كما فعل (زياد بن أبية) في خطبته (البترء) وقيل إن تمثله بالشعر أحب إليه من الاقتباس من القرآن الكريم .

وهذا اللون من الخطابة السياسية قد ظهرت فيه قوة الأسر ، وضخامة العبارة ، والتزيد في الوعيد ، والإنزار الشديد ، وكل ذلك قد اتضح في خطبة (زياد) البترء .

أما خصوم الأمويين المناوئين للخلفاء ، المناهضين لهم قد سيرت في خطبهم سمات من الابتداء بحمد الله ، والصلاة على النبي ، والاقتباس من الكتاب الكريم، كما يبدو في هذا الضرب من الخطابة التذكير بالآخرة والتنفير من الدنيا ، والدعوة إلى مجاهدة النفس والالتزام بحدود الله وظهر ذلك في خطبة أبي حمزة الشاري .